دلالة إذا النحوية

المدرس الدكتور
عبد الحسن جدوع عبد العبودي
جامعة القادسية ـ كلية الآداب

دلالة إذا النحوية

المدرس الدكتور
عبد الحسن جدوع عبد العبودي
جامعة القادسية - كلية الآداب

المقدمة

إنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم هو المعجز الخالد الذي قال فيه سبحانه(لَئِن اجتَمعت الإنسُ والجنُّ علَى أنْ يأتوا بمثْلِ هَذا القُرآنِ لا يأتونَ بمثله ولَوْ كانَ بعْضُهمْ لبَعْضٍ ظَهيرًا)[1].

ولا شكّ أيضا أنّ الاستعمال القرآني غاية في الدقة، فليس لنا أن نتوهم في لفظة أنها لو تأخرت لكان أحسن، أو لو تقدمت لكان أبلغ ، وليس لنا أن نتصوّر في أذهاننا حرفا لو استعمل بدلا من الحرف المستعمل في القرآن لكان أدقّ، كما ذهب إلى ذلك كثيرٌ من النحويين والبلاغيين، إذ اضطُروا إلى التأويل والتقدير في الآيات التي لا يجدون سبيلا إلى قبولها على ما هي عليه، فقالوا بالحذف والإضمار، ووضع لفظة موضع أخرى، ، وهكذا...

وممّا جاء في الاستعمال القرآني(إذا)، التي كان يكفي في الدراسة الثانوية والدراسة الجامعية الأولية أن يعبّر عنها الطالب بأنها أداة شرط غير جازمة، وقد اختلفت آراء النحويين فيها، ما دعاني إلى تفصيل القول فيها، ولا أزعم أنني لم أسبق إلى دراستها، بل أزعم أنني لململت أطرافها وأوجزت الكلام عليها تاركا ما لا جدوى من ذكره.

١ــــ الأصل في استعمالها

الأصل في استعمال(إذا) أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل مختصّ من بينها بوقوع حدث فيه مقطوع بوقوعه، أو كثير وقوعه؛ لذا كثر استعمالها في هذا المعنى في القرآن الكريم، لقطع عالم الغيب والشهادة جل شأنه بالأمور المتوقعة[2]، ومن ذلك قوله تعالى(إذا الشمسُ كُوِّرتْ)[3]، وقوله(إذا السماءُ انفَطَرَتْ)[4]، وقوله (إذا زُلزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها)[5]، وللحدث كثير الوقوع مثل قوله تعالى(إذا حُيِّيتمْ بتحيّةٍ فحيُّوا بأحسنَ منْها أو ردّوها)[6]، وقوله (وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاستمعوا لهُ وأنْصِتُوا)[7]، والمعلوم أنّ التحيّة وقراءة القرآن مقطوع بوقوعهما غالبا.

ولكثرة استعمال(إذا) في المقطوع بوقوعه وكثير الوقوع غلب معها لفظ الماضي[8].

وكثرة استعمال (إذا) للمستقبل لا تنفي إتيانها بمعنى المضيّ، أو لظرف الحال، فمن ورودها

بمعنى المضيّ ما ذكره سبحانه عن ذي القرنين في قوله(حتّى إذا بَلَغَ مغربَ الشمسِ وجَدَها تغرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ)[٩]، وقوله(حتّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ، وَجَدَها تطْلُع علَى قَومٍ لَم نجعلْ لهُم مِنْ دونِها سِتْرًا)[١٠].

وكذلك تأتي ظرفا للحال في مثل قوله تعالى:(والليلِ إذا يغْشى والنَّهار إذا تجلَّى)[١١]، وقوله (وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دَعَانا لجَنْبِه أو قَاعدًا أوْ قائمًا)[١٢]، وهيَ في هذه الآية دلّت على الحال المستمرة، أي: أن الانسان كلما مسّه الضرّ دعا الله سبحانه، ومثله قوله تعالى(وإذا أذَقْنا النَّاسَ رحْمَةً فرِحُوا بِهَا)[١٣].

وقد تخرج (إذا) عن الظرفية فتستعمل مفعولا به[١٤]، ومن ذلك ما روي عن النبي الأعظم محمّد(صلى الله عليه وآله)(إنّي لأعلم إذا كنتِ عنّي راضية، وإذا كنتِ عليّ غضبى)[١٥].

٢ــ تضمنها لمعنى الشرط

إنّما جاز تضمن (إذا) لمعنى الشرط مع أنّها موضوعة للأمر المقطوع بوقوعه؛ لكثرة دخول معنى الشرط فيها، وخروجها عن أصلها من الوقت المعين، وإن لم يكن فيها معنى(إن) الشرطية؛ لكون الشرط مفروضا وجوده، إذ إننا في كثير من الأمور التي نقطع بوقوعها ينكشف لنا الحال على خلاف ما نتوقعه، ولهذا تضمنت (إذا) معنى(إن) الشرطية وجاز دخول (الفاء) في جوابها[١٦].

ونرى غالبا أنّ هناك جملتين بعد(إذا) جاءتا على صورة الشرط والجزاء، وإن لم يكونا شرطا وجزاء، من أجل معنى الشرط الذي تضمنته، وهو ما دعا بعض النحاة الى القول بزيادة الفاء في جواب (إذا)[١٧] في قوله تعالى(إذا جاءَ نصْرُ اللهِ والفتْحُ ورأَيْتَ النَّاسَ يدْخُلونَ في دينِ اللهِ أفواجًا فسبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واستغفِرْهُ إنَّه كَانَ توَّابا)[١٨]، فإنّما زيدت الفاء ليكون الكلام على صورة الشرط والجزاء.

وذكر الرضي(ت٦٨٨ه) أنه جاز أن يكون جزاء (إذا) جملة اسمية بغير فاء مع كونها للشرط، لعدم عراقتها في الشرطية ورسوخها فيها[١٩]، كما في قوله تعالى(وإذا ما غضِبوا هم يغْفِرون)[٢٠]، وقوله تعالى:(والذين إذا أَصابهم البغْيُ هم ينتصرون)[٢١].

ولمعنى الشرط أجيبت (إذا) بالفاء ــ كما مرّ ـــ ، وبالفعل مثل قوله تعالى(وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها)[٢٢]، وأجيبت ب(إذا) الفجائية، التي سيأتي الكلام عليها، كما في قوله تعالى(وإذا أذقنا الناسَ رحمةً من بعد ضرّاء مسّتهم إذا لهم مكرٌ في آياتنا)[٢٣].

٣ـــ جملة الشرط وجوابه

فعل الشرط بعد(إذا) غالبا ما يكون ماضيا، وأحيانا يأتي بصيغة المضارع، أمّا الجواب فلا يخلو

من أن يكون إما ماضيا، أو مضارعا، أو مقترنا بالفاء، أو مقترنا بـ(إذا) الفجائية، أو جملة اسمية أو محذوفا.

فمثال فعل الشرط والجواب بالماضي قوله سبحانه(وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنثى ظلَّ وجْهُهُ مسوَدًا وهُوَ كظيم)[٢٤]، وقوله(وإذا سمعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عنه)[٢٥]، ومثال الفعل بالماضي والجواب بالمضارع قوله جلّ شأنه(وإذا سمعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرسول ترى أعينَهُم تفيضُ منَ الدَّمْع)[٢٦]، وقوله(فإذا جَاءَ أجَلُهُمْ لا يستأخِرون ساعةً ولا يستقدمون)[٢٧]، ومثال الفعل بالمضارع والجواب بالمضارع قوله عز وجل(وإذا تُتْلى عليهِم آياتُنا بيّنات تَعْرِفُ في وجُوه الذينَ كفَروا المُنكَر)[٢٨]، وقوله(إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقانِ سجَّدا)[٢٩]، ومثال فعل الشرط بالمضارع وجوابه بالماضي قوله تعالى(وإذا تُتلى عليه آياتُنا ولَّى مستكْبراً كأنْ لَمْ يسمعْها)[٣٠]، ومثال جواب الشرط المقترن بالفاء قوله سبحانه (إذا تدَاينتُم بدينٍ إلى أجلٍ مسمًّى فاكْتبوهُ)[٣١]، وقد ورد اقتران جواب(إذا) بالفاء بكثرة.

ومثال جوابها المقترن بـ(إذا) الفجائية قوله تعالى(حتّى إذا أخذْنا مُترفِيهمْ بالعَذاب إذا هُم يجْأَرُون)[٣٢]، وقوله(فإذا أَصابَ به مَنْ يشاءُ منْ عبَادِهِ إذا هُمْ يستَبْشِرُون)[٣٣].

وقد اجتمعت الفاء وإذا في الجواب في قوله جل شأنه:(حتَّى إذا فُتحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهمْ من كلِّ حَدَبٍ ينسلُون واقتربَ الوعْدُ الحقُّ فإذا هِي شاخصَةٌ أبْصارُ الذينَ كَفَرُوا)[٣٤] .

وقد ذكر بعض النحاة أنّهما أفادا معنى واحدا، وهو تأكيد وصل الجزاء[٣٥]، ولم يؤيد د. فاضل السامرائي إفادتهما معنى واحدا، بل جُمعَ بينهما في الآية المذكورة لإرادة معنيي السبب والمفاجأة[٣٦].

والصحيح ما ذكره د. فاضل السامرائي؛ إذ إنّ النحاة منعوا اجتماع حرفين لمعنى واحد[٣٧].

ومثال الجملة الاسمية في جواب إذا ــ وهو قليل ـ قوله تعالى(وإذا ما غَضِبُوا هم يغْفِرون)[٣٨]، وقوله(والذين إذا أصابَهم البغيُ همْ ينتصِرونَ)[٣٩].

وقد عدّها بعض النحويين في الآيتين المتقدّمتين ظرفا لما يستقبل من الزمان متجردة من معنى الشرط؛ لأن جوابها جملة اسمية غير مقترنة بالفاء[٤٠].

وما ذكروه ليس صحيحا، من جهتين: الأولى: أن الأصل في استعمال (إذا) هو ليس الشرط، فهي موضوعة للمقطوع بوقوعه وكثير الوقوع ــ كما بينت ــ والثانية: أنّ (هم) في الآية الاولى جاء تأكيدا لضمير الرفع(الواو)، وفي الآية الثانية جاء تأكيدا لضمير النصب (أصابهم).

ومثال جملة الشرط محذوفة الجواب قوله جل ذكره (يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكُم إذا حضرَ أحدَكُم الموتُ حينَ الوصيَّةِ اثْنان ذَوَا عدْلٍ منْكُم أو آخَرانِ منْ غيرِكُم)[٤١]، وقوله:(كُتبَ عليكم إذا حضرَ أحَدَكم المَوْتُ إنْ تركَ خيْرا الوصيَّةُ للوالدَيْنِ والأقربِينَ)[٤٢]، فجواب الشرط في كلتا الآيتين محذوف يفسّره

المتقدّم، ففي الأولى ــ التقدير ــ إذا حضر أحدكم الموت فشهادة أحدكم، وفي الثاني ــ التقدير ــ إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا كُتب.

وقد تأتي(إذا) غير متضمنة لمعنى الشرط، وهي في هذه الحال دالة على الزمان دون الشرط، ومنه قوله تعالى(وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخَذ القرى وهي ظالمةً إنّ أخْذَهُ أليمُ شديدٌ)[٤٣]، وقوله(وهو على جمعهم إذا يشاءُ قدير)[٤٤]، وقوله(وأنّه خلَقَ الزّوجين الذّكرَ والأُنثى من نطفةٍ إذَا تُمنى)[٤٥]، وقوله(والليلِ إذا يغْشى والنَّهارِ إذا تجلَّى)[٤٦].

٤ــ العامل فيها

تنصب(إذا) على الظرفية الزمانية، واختلف في ناصبها، فأكثر النحاة على أنه جزاؤه من فعل أو شبهه، وقال بعضهم هو شرطها[٤٧].

والذي دعا أغلب النحويين إلى القول بأن العامل في (إذا) هو الجزاء من فعل أو شبهه هو أنّ إذا في الاستعمال ليست كـ(متى) التي هي مع شرطها ليست ككلمة واحدة، فيعمل في(متى) الشرط دون الجزاء لكونه الأقرب، أما (إذا) فإنّها غالبا ما تأتي على صورة الشرط والجزاء، وهي مضافة إلى الفعل الذي بعدها ـ كما سيأتي ـ فلا يعمل ما تضاف إليه فيها[٤٨]، ومن ذلك قوله تعالى(إذا جاء نصرُ الله والفتْحُ❖ ورأيتَ النَّاسَ يدخلُون في دينِ الله أفواجًا❖ فسبِّحْ بحمدِ ربِّك واستغفْره إنَّه كانَ توَّابا)[٤٩]، فـ(إذا) هنا ظرف للتسبيح، أي: سبّح وقت المجيء وليست ظرفا لفعل الشرط، وكذلك قوله(وإذا رأيتَهُم تعجبُكَ أجسَامَهم)[٥٠]، فالعامل هو الجواب، أي تعجبُك أجسامُهم وقْتَ رؤيتهم. إلاّ إذا كانت (إذا) بمعنى (متى) فالعامل فيها جوابها.

وقد عدّ الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) (إذا) في قوله تعالى:(**إذا وقعتِ الوَاقِعَةُ❖ ليْسَ لِوقْعَتِها كاذِبَةٌ❖ خافِضَةٌ رافعةٌ❖ إذَا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا**)[٥١]، عدّها في موضع الرفع؛ لكونهما مبتدأ وخبرا، مخطئا ابن جني(ت ٣٩٢هـ)، الذي جعل (إذا وقعت) معمولا لقوله (إذا رجّت)[٥٢].

وما ذهبا إليه كلاهما بعيد، إذ إنّ (إذا) الاولى إذا صلحت أن تكون في موضع الرفع على الابتداء ــ كما يرى الطبرسي ــ فلا ضرورة لأن تكون (إذا) الثانية خبرا عنها ؛ لأن الأصلح أن تكون الجملة المنفية بـ(ليس) هي الخبر.

ولا تصلح (إذا رجّت) أن تكون عاملا في (إذا وقعت)، إذ لا تأثير للثانية في الاولى ، فيكون بذلك رأي ابن جني أبعد من بعيد.

والأولى أن يكون العامل في(إذا) محذوفا يدلّ عليه السياق، والتقدير: ذُهِلَ الناس، وإنّما حذف

لتهويله عند السامع، وقد ورد نظير هذا المعنى في قوله تعالى (إنَ زلزلةَ السَّاعة شيءٌ عظيمٌ❖ يومَ ترونَها تذهَلُ كلُّ مرضِعَةٍ عمّا أرضَعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حمْلٍ حملَها وتَرى النَّاسَ سُكارى وما هُمْ بِسُكارى ولكنَّ عَذَابَ اللهِ شَديدٌ)[٥٣].

فذُهْلُ الناسِ عند وقوعِ الواقعة واردٌ.

وللنحويين في العامل في قوله (إذا وقعت) مذاهب مختلفة[٥٤]، ليس في ذكرها هنا من جدوى.

٥ـ لزوم إذا الإضافة

لا تأتي(إذا) إلاّ مضافة إلى الجمل[٥٥]، وأكثر ما تضاف الى الجملة الفعلية وفي الآيات التي ذكرتها فيما تقدم غنًى عن ذكر غيرها لهذا المعنى.

لكنّ الذي أودّ بيانه هنا أن مجيء (ما) بعد (إذا) لا يكفها عن الإضافة إلى ما بعدها، وقد وردت (ما) بعد (إذا) في القرآن الكريم، وفي كلام العرب كثيرا، ومن ذلك قوله سبحانه (ولا علَى الذينَ إِذَا مَا أَتوكَ لتَحْمِلَهم قلتَ لا أَجِدُ ما أحملُكُم علَيه)[٥٦]، وقوله تعالى (وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ فمِنْهم منْ يقُول أيُّكم زادَتْهُ هذهِ إيمانا)[٥٧]، وقوله (وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ نَظَرَ بعضُهُمْ إلى بعْضٍ هل يراكُمْ مِنْ أَحَدْ ثمّ انْصَرَفُوا)[٥٨].

وإذا جاءت(ما) بعد (إذا) أضيفت إذا الى الجملة الفعلية التي فعلها ماضٍ دون غيرها؛ لأنّ (ما) تأكيد للكلام، والتأكيد بـ(ما) لا يصلح الا للماضي.

و(ما) هنا هي مثل(ما) المعترضة بين الجار والمجرور، كقوله تعالى(فبما رحمةٍ منَ اللهِ لنْتَ لَهُمْ)[٥٩]، وقوله (فبِمَا نقضِهِمْ ميثَاقَهم لعنّاهم وجعلْنا قُلوبَهم قاسِيَةً)[٦٠]، أي: أنّها لا تعلّق ما قبلها عن العمل فيما بعدها.

وأشار البصريون إلى أن (إذا) ملازمة للإضافة إلى الجملة الفعلية دون الاسمية[٦١]، وتأوّلوا في إضافتها الى الاسم أنّها أيضا مضافة إلى الجملة الفعلية؛ لأنّ هناك فعلا محذوفا مقدّرا يفسّره الظاهر الموجود بعد الاسم[٦٢]، فإن كان الفعل المذكور مبنيا للمعلوم أعربوا الاسم الذي بعدها فاعلا لمحذوف يفسّره المذكور، وإن كان مبنيا للمجهول أعربوا الاسم نائب فاعل، ومن ذلك قوله تعالى (إذا السّماءُ انفطرتْ❖ وإذَا الكَواكبُ انتثرتْ❖ وإذَا البِحَارُ فجِّرتْ❖ وإذا القبور بُعثِرتْ)[٦٣]، فالسماءُ والكواكب عندهم فاعل لفعل محذوف مفسر، والبحار والقبور نائبُ فاعل.

وتضمن(إذا) معنى الشرط هو الذي ذهب بالنحويين إلى أن يقولوا بإضافتها إلى الفعل[٦٤].

أمّا الكوفيون فقد تركوا ما تأوّله نحاة البصرة، وذهبوا إلى أنّ (إذا) إذا وليها اسم فإنّها مضافة

إلى الجملة الإسمية المتكونة من مبتدأ وخبر، أو مضافة إلى الاسم الذي هو فاعل للفعل الذي بعده[٦٥]، فتكون (السماء) في قوله تعالى: (إذا السماء انفطرت)، إمّا مبتدأ والجملة الفعلية بعده خبر، أو فاعلا للفعل (انفطرت) المذكور.

وأقول: لا مانع من أن تكون (إذا) في مثل ما ذكر مضافة الى الاسم؛ لأن الفعل الذي بعده يستفاد منه معنى الشرط، ولا ضرورة حينئذ للتقدير الذي ذهب اليه البصريون، وإنما قدّم الاسم لعلة بلاغية.

ومن المناسب ذكره أيضا أن (إذا) لا يجازى بها البتة؛ لأنه تدخل على المتيقّن وقوعه فتأتي وقتا معلوما، وما جاء للجزاء يقع على المشكوك ويكون مبهما[٦٦].

قال سيبويه (ت ١٨٠هـ)، نقلا عن الخليل(ت ١٧٥هـ) (فإذا فيما يستقبل بمنزلة(إذ) في ما مضى ويبين هذا أن (إذا تجيء وقتا معلوما، ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمرّ البُسْرُ كان حسنا، ولو قلت: آتيك إن احمرّ البُسْرُ كان قبيحا، فـ(إن) أبدا مبهمة، وكذلك حروف الجزاء)[٦٧].

وذكر أنهم إنما جازوا بها في الشعر مضطرين[٦٨]، ومن ذلك قول الشاعر[٦٩]:

إذا قصُرت أسيافُنا كانَ وصلُها   خُطانا إلى أعدائنا فنضاربِ

ومعنى الجزاء هنا أن قوله (فنضاربِ) مجزوم عطفا على جواب (إذا) ، وهو ليس بشيء؛ لأن الشاعر اضطرّ لذلك من أجل القافية.

وإذا مبنية دائما، وإنّما بنيت لشبهها الحرف في افتقارها إلى ما بعدها من الجمل[٧٠] .

٦ـ (إذا) الفجائية

تأتي (إذا) للمفاجأة وهي غير متضمنة لمعنى الشرط، وتختصّ بالجملة الاسمية، ولا تقع في صدر الكلام، وتكون للحال[٧١].

فهي إذن تختلف عن (إذا) المتضمنة لمعنى الشرط، التي تختص غالبا بالفعل، وتأتي في صدر الكلام ، وتكون غالبا للاستقبال ـ كما تقدم ـ.

ومن ذلك قوله تعالى (**فألقاها فإذا هي حيَّةٌ تسعَى**)[٧٢]، وقوله (**قال بل ألقُوا فإذا حِبالُهم وعصيُّهم يُخيَّلُ إليهِ منْ سحرِهِمْ أنَّها تسْعَى**)[٧٣]، وقوله (**فما أحسُّوا بأسَنا إذا هم منها يركُضُون**)[٧٤].

واختلف فيها، فقال قوم إنها حرف، وقال آخرون إنها ظرف[٧٥].

وقد عدّها الأخفش (ت ٢١٥ه،)، والمازني(٢٤٩هـ) حرفا، وهي عند المبرّد (ت٢٨٥هـ) ظرف مكان، وعند الزجاج (ت٣١١هـ) ظرف زمان[٧٦].

وأجاز الأخفش في مثل: بينما يمشي فإذا زيد منطلق، أن تكون إذا حرف مفاجأة، أو ظرف زمان، بمعنى فوقت انطلاق زيد موجود[77]، والرأي الثاني في قول الأخفش رفضه المازني بقوله (تكون إذا هاهنا حرف المفاجأة ولا تكون وقتا)[78].

ومن مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين إعراب الجملة بعد(إذا) التي للمفاجأة، وهي ما عرفت بالمسألة الزنبورية التي حدثت بين الكسائي و(ت ١٨٩هـ) وسيبويه، إذ جوّز الكسائي الرفع والنصب في الاسم الثاني بعد إذا في قولهم: كنت أظنّ أنّ العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها، ونحو: خرجت فإذا عبد الله القائمُ، أو القائمَ، رفع القائم على أنه خبر، ونصبه على أنه مفعول ثانٍ، والتقدير: خرجت فوجدت زيدا القائمَ؛ لأن معنى مفاجأتك الشيء وجدانك له فجأةً[79].

ولم يرتضِ سيبويه إلا الرفع؛ لأن إذا الفجائية يجب الابتداء بعدها، وتبعه الى ذلك البصريون[80]. فتقول: فإذا هو هي، وتقول: خرجت فإذا عبد الله القائمُ.

والصحيح في مثل هذا ما ذهب اليه سيبويه لسببين:

أمّا الأول: فلأنّ (إذا) هذه لم تأتِ في الذكر الحكيم إلا والجملة بعدها اسمية خبرها مذكور، ومنه قوله عز وجلّ (**ثمّ نُفخَ فيه أُخرى فإذا همْ قِيامٌ ينْظُرون**)[81]، وقوله (**وإذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكُمَ بينَهم إذا فَريقٌ منْهم مُعْرِضُون**)[82]، وقوله: (**فإنّما هي زجْرةٌ واحِدةٌ فإذا هم ينظرون**)[83]، وقوله تعالى (**إنْ كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا همْ خامِدُون**)[84] ، وقوله: (**أولم يرَ الإنسانُ أنّا خلقْناه من نطفةٍ فإذا هُو خَصيم مبين**)[85] ، وغيرها كثير.

فالجمل الاسمية المذكورة بعد إذا تامة ولم يوجد فيها نظير ما ذكره الكسائي من منصوب.

والسبب الثاني: ان الكسائي إنما أجاز النصب ؛ لأنه جعل إذا بمنزلة الفعل، بمعنى انه يجوز ان تقدّر في الآية (**فإذا هي ثُعبانٌ مُبينٌ**)[86]، ففجأتني، وتقدر في: فإذا زيد قائم، قام زيد قائم[87]، وهو بيّن البطلان.

وتأتي إذا الفجائية جوابا للشرط ـ كما تقدم ـ مثلما تأتي الفاء، الا انها تختلف عنها في أن إذا لا تدخل الا على جملة اسمية غير طلبية، وغير مقرونة بـ(إنّ) التوكيدية[88]، نحو قوله تعالى (**وإن تصبهم سيئة بِمَا قدَّمتْ أيدِيهم إذا هم يقْنُطون**)[89]، وقوله (**فلما أنجاهم إذا هم يبغُون في الأرضِ بغيْرِ الحقِّ**)[90]، وقوله (**حتّى إذا أخذْنا مترفِيهم بالعَذابِ إذا هُم يجْأرون**)[91]، وقوله: (**وإذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكُم بينَهم إذا فريقٌ منهم معرضُون**)[92].

وجاءت إذا الفجائية أيضا في جواب (بينا) في غير القرآن، ومن ذلك قول خرقة بنت النعمان بن المنذر[93]:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصّفُ

فإن عدّت إذا في جواب (بينا) وفي جواب (إذا) ظرف مكان ــ كما هو رأي المبرد ــ فالعامل فيها ما بعدها، وهي في مثل هذه الحال غير مضافة الى الجملة التي بعدها؛ لأن المكان لا يضاف الى الجملة إلا في (حيث)، وإن كانت ظرف زمان ــ كما يرى الزجاج ــ فتكون إذا حينئذ مضافة الى الجملة بعدها، وتكون اسما للزمان وليست ظرفا، ونعرب مبتدأ ، و(بينا) خبرها، والأولى أن تكون حرفا يفيد المفاجأة، كما هو المشهور عند النحويين[٩٤].

ومن المفيد ذكره أن (إذا) الفجائية قد لا تكون واقعة في جواب الشرط، بل تدلّ على المفاجأة ليس غير، وذلك حين تسبقها الفاء، و(ثم)، ومنه قوله تعالى (**فألقى عصاه فإذا هي ثُعبانٌ مبينٌ ونَزَع يدَهُ فإذا هيَ بيضَاءُ للنَّاظِرينَ**)[٩٥]، وقوله (**ثُمَّ نُفخَ فيه أُخْرى فإذَا هُمْ قِيامٌ ينظُرونَ**)[٩٦]، وقولُه (**وأَوْحينا إِلى مُوسى أنْ أَلْقِ عَصَاكَ فإذا هِيَ تلقَفُ ما يأفِكُون**)[٩٧]، وغيرُه كَثيرٌ.

ومثال سبقها بـ(ثم) قوله تعالى (**ومِن آياتِه أنْ خلقَكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ تنْتَشِرون**)[٩٨].

الخلاصة

ظهر من خلال البحث ما يأتي:

١ــ الأصل في استعمال (إذا) أن تكون ظرفا للمستقبل، غير أنها قد تأتي للدلالة على المضي، أو للدلالة على الحال.

٢ــ تختصّ (إذا) بالأحداث التي يقطع بوقوعها، وبالأحداث التي يكثر وقوعها.

٣ــ قد تخرج (إذا) عن الظرفية فتستعمل مفعولا به.

٤ـ تتضمن (إذا) معنى الشرط غالبا، مع انها موضوعة للأمر المقطوع بوقوعه؛ لكثرة دخول معنى الشرط فيها ولهذا جاز دخول الفاء في جوابها.

٥ــ قد تخلص (اذا) للظرف من دون أن تتضمن معنى الشرط .

٦ـ (إذا) مضافة دائما الى الجملة، وهي مبنية لشبهها الحرف في افتقارها للجملة بعدها.

٧ــ يجاب عن (إذا) المتضمنة للشرط بالفعل وبالفاء وبـ(إذا) الفجائية.

٨ــ هناك (إذا) دالة على المفاجأة، وهي غير متضمنة لمعنى الشرط وتختص بالجملة الاسمية دون الفعلية، ولا تقع في صدر الكلام وتكون للحال، وتعرب أما حرفا ــ وهو المشهورــ أو ظرفا، وتقع في جواب إذا الشرطية، وفي جواب (لما)، وبينا، الا إذا سبقت بالفاء فإنها تدل على المفاجأة وحسب دون أن تكون جوابا للشرط.

هوامش البحث

١- الاسراء: ٨٨.
١. ينظر: المفصل: ١٧١، شرح الرضي على الكافية: ١٨٥/٣، شرح المفصل: ٤٦/٥.
٢. سورة التكوير: ١.
٣. سورة الانفطار: ١.
٤. سورة الزلزلة: ١.
٥. سورة النساء: ٨٦.
٦. سورة الاعراف: ٢٠٤.
٧. البرهان في علوم القران: ٣٦٢/٢.
٨. سورة الكهف: ٨٦.
٩. سورة الكهف: ٩٠.
١٠. سورة الليل: ١-٢.
١١. سورة يونس: ١٢.
١٢. سورة النور: ٣٦.
١٣. ينظر: مغني اللبيب: ٩٣/١، المطالع السعيدة: ٤٢١/١.
١٤. ينظر: صحيح البخاري: ٢٤٠١/٤.
١٥. ينظر: شرح الرضي: ١٦٨/٣- ١٦٩، الجنى الداني: ٣٦٨.
١٦. . ينظر: شرح الرضي: ١٩٠/٣.
١٧. سورة النصر : ١-٤.
١٨. . ينظر: شرح الرضي: ١٩١/٣.
١٩. سورة الشورى: ٣٧.
٢٠. سورة الشورى: ٣٩.
٢١. سورة النور: ٣٦.
٢٢. سورة يونس: ٢١.
٢٣. سورة النحل: ٥٧.
٢٤. سورة القصص ٥٥.
٢٥. سورة المائدة: ٨٣.
٢٦. سورة الاعراف: ٣٤، سورة النحل: ٦١.
٢٧. سورة الحج: ٧٢.
٢٨. سورة الاسراء: ١٠٧.
٢٩. سورة الجاثية: ٨.

٣٠. سورة البقرة: ٢٨٢.
٣١. سورة المؤمنون:٦٤.
٣٢. سورة الروم: ٤٨.
٣٣. سورة الانبياء: ٩٦ـ ٩٧.
٣٤. ينظر: التصريح: ٢٥١/٢.
٣٥. ينظر: معاني النحو: ٩٩/٤.
٣٦. ينظر: شرح ابن عقيل: ٣٣٣/١.
٣٧. سورة الشورى: ٣٧.
٣٨. سورة الشورى: ٣٩.
٣٩. ينظر: مغني اللبيب: ١٠٠/١، البرهان: ٤/ ١٩٦.
٤٠. سورة المائدة: ١٠٦.
٤١. سورة البقرة: ١٨٠.
٤٢. سورةهود:١٠٢.
٤٣. سورة الشورى: ٢٩.
٤٤. سورة النجم: ٤٥ـ ٤٦.
٤٥. سورة الليل: ١ـ ٢.
٤٦. ينظر: شرح الرضي: ١٨٩/٣، الجنى الداني: ٣٦٨.
٤٧. ينظر: شرح الرضي: ١٨٨/٣ــ١٩٠.
٤٨. سورة النصر : ١ــ٣.
٤٩. سورة المنافقون: ٤.
٥٠. الواقعة: ١ــ٤.
٥١. ينظر: مجمع البيان: ٢١٤/٩.
٥٢. سورة الحج: ١ــ ٢.
٥٣. ينظر: مجمع البيان:٢١٤/٩.
٥٤. ينظر: المقتضب: ٢/ ٣٤٧، البسيط في شرح الجمل: ٢/ ٨٧.
٥٥. سورة التوبة: ٩٢.
٥٦. سورة التوبة: ١٢٤.
٥٧. سورة التوبة: ١٢٧.
٥٨. سورة آل عمران: ١٥٩.
٥٩. سورة المائدة: ١٣.
٦٠. ينظر: كتاب سيبويه: ٩٠/٣، شرح الاشموني: ٦٥/٣.
٦١. ينظر: الأصول في النحو: ١٤٣/٢، أوضح المسالك: ١٥.

٦٢. سورة الانفطار: ١ـ ٤.
٦٣. ينظر: المقتضب: ٣٤٧/١، المطالع السعيدة: ٤٢١/١.
٦٤. ينظر: الجنى الداني: ٣٦٨، شرح الأشموني: ٣١٦/٢.
٦٥. ينظر: كتاب سيبويه: ٤٦/٣، البرهان : ١٩٩/٤.
٦٦. كتاب سيبويه: ٤٦/٣.
٦٧. كتاب سيبويه: ٣/ ٤٧.
٦٨. ديوان قيس بن الخطيم الانصاري: ٤١.
٦٩. ينظر: المفصل: ١٧١، شرح الرضي: ١٦٨/٣.
٧٠. ينظر: تسهيل الفوائد: ٩٤، أسرار النحو: ١٩٩.
٧١. سورة طه: ٢٠.
٧٢. سورة طه: ٦٦.
٧٣. سورة الانبياء: ١٢٠.
٧٤. ينظر: شرح الرضي: ١٩٤/٣، رصف المباني: ٦١ـ ٦٢، الانصاف: المسألة: ٩٩.
٧٥. ينظر: المقتضب: ١٨٥/٣، مجالس العلماء: ٦٨ـ ٦٩، تسهيل الفوائد: ٩٤.
٧٦. ينظر: مجالس العلماء: ٦٩، الاشباه والنظائر: ٦٥/٣ـ٦٦.
٧٧. مجالس العلماء : ٦٩.
٧٨. ينظر: الانصاف: المسألة٩٩، شرح الرضي: ١٩٤/٣.
٧٩. ينظر: مجالس العلماء: ٩ـ١٠، شرح الرضي: ١٩٤/٣ــ١٩٥.
٨٠. سورة الزمر: ٦٨.
٨١. سورة النور ٤٨.
٨٢. سورة الصافات :١٩.
٨٣. سورة يس: ٢٩.
٨٤. سورة يس: ٧٧.
٨٥. سورة الاعراف: ١٠٧.
٨٦. ينظر: رصف المباني: ٦٢.
٨٧. ينظر: رصف المباني: ٦٢، همع الهوامع: ٦٠/٢.
٨٨. سورة الروم: ٣٦.
٨٩. سورة يونس: ٢٣.
٩٠. سورة المؤمنون: ٦٤.
٩١. سورة النور: ٤٨.
٩٢. ينظر: شرح الرضي:١٩٥/٣.
٩٣. ينظر: تسهيل الفوائد: ٩٤، شرح الرضي: ١٩٩/٣، رصف المباني: ٦١ــ ٦٢.

٩٤. سورة الاعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨.

٩٥. سورة الزمر: ٦٨.

٩٦. سورة الاعراف: ١١٧.

٩٧. سورة الروم: ٢٠.

قائمة المصادر و المراجع

ــ القرآن الكريم .

ــ أسرار النحو، لابن كمال باشا(ت ٩٤٠ه)، تحقيق أحمد حسن حامد، دار الفكر عمان.

ــ الاشباه والنظائر، لأبي الفضل عبد الرحمن ابن الكمال جمال الدين السيوطي(ت ٩١١ه)، تح طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الازهرية، ١٩٧٥م.

ــ الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج النحوي البغدادي(٣١٦هـ)، تح الدكتور عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان ١٩٧٣م.

ــ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الانباري(ت ٥٧٧هـ)، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت.

ــ أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك، لابن هشام الانصاري(٧٧٦هـ)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٦٦م، بيروت.

ــ البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(٧٩٤هـ)، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة بيروت، ١٩٧٢م.

ــ البسيط في شرح جمل الزجاج، لابن أبي الربيع(٦٨٨هـ)، تح عباس الشتّي، دار المغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

ــ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لجمال الدين بن مالك(ت ٦٧٢هـ) تح محمد كامل بركات دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

ــ الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي(ت ٦٤٥هـ) تح طه محسن، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ط١، ١٩٧٦م.

ــ رصف المباني في شرح حروف المعاني، للأحمد بن عبد النور المالقي(٧٠٢هـ)، تح أحمد محمد الخراط، دمشق ١٩٧٥م.

ــ شرح ابن عقيل لبهاء الدين عبد الله ابن عقيل العقيلي(ت ٧٦٩هـ) تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

ــ شرح الاشموني على ألفية ابن مالك، لنور الدين الاشموني(٩٢٩ه) تح محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مصر.

ــ شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.

ــ شرح المفصل لأبي البقاء علي بن يعيش(٦٤٣ه)، الطباعة المنيرية بمصر.

ــ صحيح البخاري، لمحمد بن اسماعيل البخاري(ت ٢٥٦ه)، تح مصطفى ديب، بيروت ط٣، ١٩٧٨م.
ــ كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تح عبد السلام هارون ، دار التاريخ بيروت.
ــ مجالس العلماء، لأبي القاسم عبد ابن اسحق الزجاجي(٣٤٠ه)، تح عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٢.
ــ مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي(ت ٥٤٨ه)، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩ه.
ــ المطالع السعيدة في شرح الفريدة، لأبي الفضل عبد الرحمن ابن الكمال جمال الدين السيوطي(ت ٩١١ه)، تح الدكتور نبهان ياسين، دار الرسالة بغداد، ط١، ١٩٧٧م.
ــ معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت ط ٢٠٠٧.
ــ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الانصاري(٧٧٦ه)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد.
ــ المفصل في صنعة الاعراب لجار الله الزمخشري(ت ٥٣٨ه)، تح الدكتور علي بن ملحم ، بيروت ط١، ١٩٩٣م.
ــ المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥ه)، تح محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٨٦ه.
ــ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لأبي الفضل عبد الرحمن ابن الكمال جمال الدين السيوطي، ط١ ١٣٢٧هـ، مصر.